

بخلاء الجاحظ.. درس في المنطق وتهكم عليه

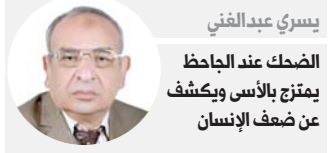
رائعة ابن البصرة الذي انتبه إلى التفاصيل ولا شيء غير التفاصيل



الجاحظ في مغامرة أدبية لا تتمد عقباها.. إنه شيطان الأدب (بورتريه للرسم خالد جليل)



عبد الفتاح كيليطو
ظاهر الكتاب يصب
في قذح البخلاء وباطنه
يصب في مدحهم



يسرى عبد الفتاح
الضحك عند الجاحظ
يمتدح بالأسى ويكشف
عن ضعف الإنسان

بذلك، وكان البخل أضحى بعضاً من الطبيعة.

انتبه الجاحظ ومعه مولير - إلى أن صفة البخل تزيد المجتمع تمرقاً والناس تبعاء، على اعتبار أن الكرم الإنساني أشد حالات الإنسان حميمية، ومنها تبني البشرية تواصلها الذي لا بد منه، إلا أن لكلا الرجلين ذريعتيه فيما أرادا صفة البخل وسبيلة لإسراخ مهاراته في المنطق والتدليل عليه ثم الاستخفاف به حين يغدو سلوكاً لا طائل من ورائه، بينما ذهب مولير الذي تأثر في مسرحيته الشهيرة "البخيل"، بالشاعر الروماني بلوتوس حيث "صور شخصية أرباغون" ذاهبا بها نحو العدمية على لسان بطله في مونولوج أخاذ "لقد هلك، لقد نحروني، لقد سرقوا مالي، من تراه اللص، ماذا حل به، أين هو، في أي مكان يختبئ، ماذا أفعل لأعرفه، إلى أين أجري، اليس هو هنا، اليس هو هناك، من هذا، قف، أعد إلي مالي أيها النذل، (يقبض على ذراعه اليسرى)، أوه، هذا أنا، لقد فقدت صوابي، إني أجهد من أنا، وأجهد أين أنا، وأجهد ما أعمل".

ويواصل بخيل مولير كلامه في نفس المشهد "أه، يا دراهمي المسيكية، يا صديقتي الغالية، لقد حرمت منك، وبما أنك انتزعت مني فقد فقدت سندي وعزائي وفرجي، انتهى امري ولم يبق لي بعدك حاجة في الدنيا، بدونك يا دراهمي لا أستطيع الحياة، انتهى الأمر، إني أتلاش، إني أموت، بل لقد مت فعلاً، لقد دفنت، من يستطيع من بيعتني من الموت بأن يرد دراهمي الغالية".

لم يوجد في تاريخ الأدب العربي من "قذح البخل" حق قدره غير الجاحظ، وذلك في أدب مديني رقيق، إذ لا تسمح بمثل هذه الآداب غير المدينة، فهل يخطئ بابن البادية أن يتحدث عن البخل كما فعل الجاحظ، وهل يخطئ له أن يتحدث عن الاحتياك كما فعل الهمذاني.. وهل يخطئ باديب أن يتحدث عن أديب كما فعل بديع الزمان بابي عثمان عمرو بن بحر؟

قد اختار بخلاءه من طبقة المثقفين، وكبار رجال الدولة، كالوزراء والولاة، أما مولير الفرنسي فاختر بخيله من الطبقة الوسطى، حين تنزل عليه ثروة هائلة فتكشف عن خباياه وعن ضعفه أي أن زاوية النظر مختلفة لدى الكاتبين الذين تفصل بينهما قرون من التاريخ.

لكن الجاحظ ومولير، يختلفان في تصوير الصراع الداخلي في أعماق البخيل، حيث نجد الشهوة العمياء والأناجية البغيضة، والاختلال في القيم، يغلف كل ذلك ستار من الأحاسيس الإنسانية العميقة الدائمة، فالضحك - وبحسب الباحث يسري عبد الغني - يمتزج بالأسى، والسخرية تكشف عن ضعف الإنسان حين تستبد به الأهواء، فالقارئ أو المشاهد، يضحك ويشفق على من يضحك منهم ومن سلوكهم، مضيفاً "البخيل لا يدري أنه إنسان مريض ومصيبته أنه لا يدري أنه مريض، ولا يريد أن يدري

ما عساه يقول السياب الذي مات متوجعاً لمفكر معتزلي مات تحت ركام الكتب؟



الوجع والسيروم لمفكر معتزلي مات تحت ركام الكتب وهو مفلوج.. وما الكتاب السميكت الثقيل الذي سقط فوق الجاحظ فقتضى عليه.. لعله كتاب معاصر.. من يدري؟

كانت هذه فكرة نص مسرحي حامت في ذهني آنذاك ثم أودعتها أجلا غير مسمي مثل كل فكرة تهمس بها فرشة الأسنان إلى اللسان كل صباح.

"البخلاء" كتاب يثير الضحك لكنه لا يمزح، يدعو للتأمل والإعجاب الشديد بمرجل شديد الفطنة، حاد الذكاء، ومدعش عند كل جملة. قال أحد المستشرقين: إذا كان للعرب أن يفخروا بأديب من لحمهم وشحمهم فهو الجاحظ.. ولا أحد سوى الجاحظ.

يكشف هذا القول النقاب على أن العرب قد تفتنوا إلى الفكر اليوناني منذ ما قبل الماسون وتأسيس "بيت الحكمة" وسار كتاب كثيرون منهم على هذا إلى أن أعماهم الفكر الظلامي وأدعياءه التكفيريين.

لا يزال كتاب "البخلاء" نبعا تنهل منه الدراما البشرية منذ العصر العباسي، إلى درجة أن بديع الزمان الهمذاني، واضع المقامات قد خصص له باباً سماه بـ "المقامة الجاحظية" في تكريم لهذا الرجل العربي من كاتب فارسي الأصل.

ولا يزال النقاد والدارسون يختلفون حول بخلاء الجاحظ بين قسم حجاجي استبدالي يسير فيه البخيل وفق استراتيجيات متناسقة ومماسكة تبدأ من المقدمات لتصل تدريجياً ومنطقياً إلى النتيجة. وبين قسم قصصي يتميز بطابع السرد والتجريب من أجل تصوير حياة البخيل بين الناس عملياً: سلوكه (أفعال وردود أفعاله) نفسيته وصراعه الباطن والظاهر بين دواعي المذهب (الجمع والمنع) ومتطلبات الاندماج مع الآخرين (الجدود والإنفاق)، كما تصور طرق تعامله مع المال وتصرفاته على مائدة الطعام، وهذان القسمان يمثلان العلاقة ما بين النظرية والتطبيق، حسب قول أحد النقاد.

الجاحظ حير النقاد والدارسين من بعده، فهل هو مبتدع في كتابه البخلاء أم يذمهم، لكن الحقيقة تشير إلى أن كل ما كتبه لا يعدو أن يكون ذريعة لقول شيء آخر.. إنه لم يكن مجرد إنسان سطحي يسخر من هذه الفئة لينتصر لثقله، فيعطي من شأنها على طريقة المدح السائد في أشعار العرب وقصصهم، وإنما فعل قراءة شديدة العمق، كثيفة التأمل، وتحيل إلى ما يصعب توقعه.

شهوة عمياء
وبالإحالة إلى الأدب المقارن الذي لا يمكن الهروب منه في مقاربة ثقافة باخري، وإن اختلفت الظروف والأطر الاجتماعية، فإن الجاحظ

البخلاء ويهاجمهم، حين قال إن البخيل لا يظن لظاهر قبحة وشناعة اسمه وخمول ذكره وسوء أثره على أهله. غير أنه الجاحظ نفسه سرعان ما - وبحسب كيليطو - يضيف أن البخيل يحتج "لذلك بالمعاني الشداد وبالآفاظ الحسان وجودة الاختصار وبقرريب المعنى وبسهولة المخرج وإصابة الموضوع".

الجاحظ رجل يتأمل في كل شيء، لغة وبياناً وإعجازاً. ألف في "البيان والتبيين" فقال إن خطأ منشوراً خير من صواب مهجور، وذهب في رسالة "التربيع والتدوير" إلى أن اللغة ملهية، ثم انتهى إلى أن الحيوان يعلم العاقل ما لا يعرفه العاقل في محاكاة مدهشة لكتاب أرسطو، وهو المعتزلي الذي نهل من فكر الإغريق حتى كاد أن يتهم بالزندقة في عصره.

شيطان الأدب

لم يكن البخلاء في كتاب الجاحظ إلا ذريعة للاستعراض في فنون المنطق وأدابه بل وربما سخرية من المنطق، وذلك كما ورد على لسان زبيدة بن خلف، وهو يعاتب خادمه كيف جاءه بديك مشوي دون رأس "أين رأس الديك، والرأس رئيس الأعضاء، ومنه يصيح الديك، وفيه العين التي يضرب بها المثل في الصفاء فيقال شراب عين الديك.. لا تقل إني ريمته، لقد ريمته في بطنك أيها اللعين".

ماذا يفعل رجل برأس ديك غير الانحياز للفصاحة اللغوية واللعب بالمنطق؟ إلا يذكر هذا بالنكت الحديثة التي تقول إحداها بأن شخصاً سال أحد أقاربه البسطاء يريد أن يعلمه المنطق بقوله "هل لديهم كلب؟" أجاب الثاني بـ "لا" فقال له بأن بيتكم صغير لا يتسع لحديقة تضم كلباً، وعليه فإن أمك لا تتشغل بشؤون البيت ثم خلص إلى أنها - وعلى الأرجح - تخون أباه.



إنه الجاحظ أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء ورسام الكاريكاتير بالكلمات، ورائد فن المسوخ

ويبدو أن ثمة صلة بين تدبير المال والبخل وتدبير المعاني من معنى آخر، وفي البلاغة فإن شخ المفردات وتوظيفها المختار يعني ببساطة غاية الحكمة و"خير الكلام ما قل ودل"، كما يقال.

الجاحظ يذهب بالأشياء نحو أقصاه، ويستحب اللغة ويتجرأ على المنطق في مغامرة أدبية لا تتمد عقباها.. إنه شيطان الأدب، وقد تصدق المرأة التي أخذت بيده في السوق صوب نداء وهساء وتدققاً من هذا البصري شيطاناً في صورة أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ.

إذا كان للكتابة الساخرة من رجلين في تاريخ الأدب العباسي فهما الجاحظ وابن الرومي، الأول حرر النثر من الشعر، والثاني حرر الشعر من النثر.

في البصرة العراقية تمثالين لشخصين متميزين جمع بينهما التاريخ الحديث والتاريخ المعاصر في مقاربة غريبة لكنها تبدو منطقية. ماذا لو هرب بدر شاكر السياب، التمثال، بجلده ولحمه وعظمه البرونزي من تلك الحرب السريالية، واحتتم في ملجأ آمن ملتقياً بتمثال ابن بلوته، "أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ"، ما عسا أن يكون الحوار بين صاحبي الوجهين النحيفين الغريبيين المميزين، بين صاحب "الموسم العمياء" و"جيتكور" و"يا عراق" وصاحب "البيان والتبيين" و"البخلاء" و"التربيع والتدوير"؟

السياب الذي قرّب الشعر إلى النثر، والجاحظ الذي حرر النثر من الشعر، ما عسا أن يقول شاعر حزين مات تحت

لم يكن البخلاء في كتاب الجاحظ إلا ذريعة للاستعراض في فنون المنطق، ولا يزال الكتاب نبعا تنهل منه الدراما البشرية منذ العصر العباسي، ولا يزال النقاد والدارسون يختلفون حول الجاحظ تلميذ أبي إسحاق النظام، المعتزلي، الذي ذهب بالمنطق نحو أقصاه، ثم دجّنه وعزبه حتى أمسى يمشي على قدميه في أسواق البصرة.

بالأضداد تُعرف، لذلك ألف "البخلاء" وسلط غضبه على سكان "مرو"، الإقليم الفارسي الذي لم ينج إلى الآن من لعنة الجاحظ كما لم تنج أيرلندا البريطانية من نكات الإنجليز واتهامهم لها بالبخل.

وفي هذا الصدد كتب الجاحظ "كنت في منزل ابن أبي كريمة، وأصله من مرو، فرأني أتوضأ من كوز خزف، فقال: سبحان الله! تتوضأ بالعبث، والبئر لك معرضة؛ قلت: ليس بعذب، إنما هو من ماء البئر. قال: ففقدت علينا كوزنا بالملوحة. فلم أدري كيف اتخلص منه".

لم تنج من لسان الجاحظ حتى الحيوانات والطيور - وتلك قدرة هائلة يندهش إليها الجميع - إذ كتب الجاحظ في "البخلاء": "ومن قصص أهل خراسان أيضاً، لم أر الديك في بلدة قط إلا وهو لافظ، يأخذ الحبة بمنقاره، ثم يلفظها قدام الدجاجة، إلا ديكه مرو، فإنني رأيتها، تسلب الججاج ما في مناقيرها من الحب. فعلمت أن بخلهم شيء في طبع البلاد وفي جواهر الماء، فمن ثم عم جميع حيوانهم".

لا تخلو منطقة في العالم من هذه الشبهة في التنكر والتفكك، ذلك أن البخل حالة نافرة، هوجاء وغريبة الأطوار ومفجرة للسخرية، على اعتبار أن الإنسان ميال بالطبع والغريزة إلى الكرم كوسيلة تواصل اجتماعي، أما البخل فحالة نافرة وتثير الضحك والاشمزاز.. وإلا لماذا يؤلف الفرنسي مولير مسرحية "البخيل" ولم يؤلف "الكريم"؟

قول نعم يصرف النعم

الجاحظ لم يكن متحاملاً ضد الفرس إلى هذا الحد بل أدلى بدلوه في عالم البخلاء إلى الحد الذي لم يسلم من قلمه كبير فلاسفة العرب، وهو الكندي، الذي خصص له فصلاً في كتابه سماه "شروط الكندي على سكان بيته"، وفيه يشترط على المستاجر عدم الكثرة من استعمال الأدرج خشية أن تهترئ، وأفرد الجاحظ له باباً كان غاية في الرشاقة اللغوية، حيث يقول فيلسوف العرب ناصحاً ابنه "يا بني، الأب ربّ الأخ فخّ والعَم غمّ والخال وصال، والأقارب عقارب، وقول لا، يزيل البلاء، وقل نعم، يصرف النعم".

تكتشف هنا أن أبا عثمان لم يكن عنصرياً شعوبياً متحاملاً ضد الفرس، بل سرعان ما يجد الذريعة اللغوية والمنطقية لفضح البخلاء.. لا بل كان يستعرض مهاراته اللغوية وتبريراته المنطقية التي لا يُشَقُّ لها غبار.

بخلاء الجاحظ كانوا يتشققون في كل شيء، بما في ذلك اللغة. وتلك نظرية الجاحظ في اعتقاده بأن البلاغة هي الإيجاز - هل رأيتم أديبا أكثر نكاه وهساء وتدققاً من هذا البصري الذي جاور الشواطئ واشتغل في بيع الأسماك ثم تعلم منها السباحة دون غرق.

لم تكن قصص البخلاء ونواديرهم في كتاب الجاحظ إلا ذريعة للاستعراض في فنون المنطق وأدابه

وفي هذا الصدد، يرى الكاتب عبد الفتاح كيليطو، أن ظاهر كتاب البخلاء أنه يصب في قذحهم، ولكن باطنه يصب في مدح خصالهم الأخرى، التي لا يراها عامة الناس، مشيراً إلى أن البشر عادة تحبذ الكرم وترفض البخل، لهذا سوف نفهم أن كتاباً بهذا المضمون لابد أنه في ذم البخل. ويضيف كيليطو، بأن الجاحظ نفسه في المقدمة "يبدو كما لو أنه يقدر في



حكيم مرزوقبي كاتب تونسي

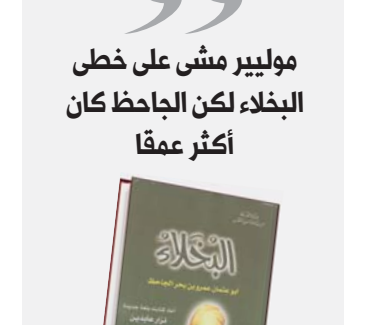
أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى سنة 780، من لا يعرف هذا الرجل، الذي كان يكتري دكاكين الوراقين وبيات فيها محتضناً الكتب والصحائف حتى انهارت فوقه ذات ليلة فاصابته بفالج لا يُعالج، ومات شهيداً تحت ركام الأسفار كما أشيع.

البلاغة هي الاختصار

سخر من كل شيء - حتى من نفسه وغرابة شكله في نظر الآخرين - حتى أن امرأة قد أخذت بيده واقتادته إلى صائغ في السوق ثم قالت لصاحب المحل: ارسم على خاتمي هذا الوجه. قال الصائغ: لم أفهم؟ قالت: هذا هو الشيطان الذي طلبت منك نقشه على خاتمي.



مولير مشى على خطى البخلاء لكن الجاحظ كان أكثر عمقا



كتاب يثير الضحك لكنه لا يمزح، يدعو للتأمل والإعجاب ومدعش عند كل جملة

من روى الحادثة كان الجاحظ، ولا أحد يقدر على السخرية من نفسه غير الجاحظ.. هل رأيتم واحداً سواه يستبق الجميع إلى السخرية من نفسه، ويجعلها هدفاً ومرمى في خضم لعبة أدبية أسرة؟

إنه الجاحظ أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء، رسام الكاريكاتير بالكلمات، ورائد فن المسوخ الذي لم يسبقه إليه أحد.

فصل الشعر عن النثر كما يفصل اللحم عن العظم، وحرر الكتابة العربية من كل مفردات البديع والفصاحة الزائدة عن اللزوم، وقال إن البلاغة هي الاختصار.. وإذا كان للعرب من أديب يتباهون به بين محافل الأدباء في العصر العباسي وما جاء بعده فهو الجاحظ.

رد على الشعوبية الفارسية التي حاولت تقزيم العرب والانتقاص من شأنهم في ظرف اعتقدوا فيه أنهم انتصروا فكرياً وانهمزوا عسكرياً، وأبرز قيمة أخلاقية لم يعرفها الفرس ولم يعدها، ألا وهي الكرم. الكرماء لا يحتاجون إلى مؤلفات ومصنفات في مدح صفاتهم، لكن الأضداد